

النظريات المختلفة في أصل اللغة

لقد تناول العلماء هذه القضية حين تساءلوا عن ماهية اللغة : أموامة هي أم إلهام ؟ ويعنون بالموامة : أنها اصطلاح بين الناطقين بها ، ويعنون بالإلهام ما يقصد من عبارة : الوحي والتزويل ، وقد جاءت في ذلك عدة نظريات لتفسير نشأة اللغة عند الإنسان ، نعرضها هنا باختصار :

النظرية الأولى :

ويذكر ابن جنى أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف . ثم يقول : إلا أن أبا على (يقصد أستاذه أبا على الفارسي) قال لي يوما : هي من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : « وعلم آدم الأسماء كلها »^(١) ، فكان ابن جنى متردد بين اعتبارها عرفا وموامة ، واعتبارها وحيا وتوقيفاً ، ولكنه إلى الرأى الأول أميل ، لولا أن أستاذه قال بالرأى الآخر .

وليس القول بأنها (توقيف) أو وحي من عند الله هو رأى أبى على الفارسي وحده ، وإنما وجدناه عند من هو أقدم منه ، وهو أبو عثمان الجاحظ ، حيث قال بأن الله سبحانه أنطق نبيه إسماعيل بالعربية ، دون سابق تمهيد أو تعليم ، ونص كلامه : « وقد جعل الله إسماعيل ، وهو ابن أعجمي ، عربياً ، لأن الله لما فتق لهماًته بالعربية المبنية على غير التلقين والترتيب ، وفطره على الفصاحة المعجبية على غير النشوء والتمرين ، وسلخ طباعه من طبائع المعجم ،

ونزل إلى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعا على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة ، ثم حماه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمالهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهمهم على أكرمها وأسنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، وصار أحق بهذا النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب ^(١) .

فاللغة العربية هنا هي وحي من عند الله ، لتكون معجزة ، ودليلا على نبوة إسماعيل ، وهذا التصوير الميتافيزيقي العجيب . من رجل كالجاحظ ، هو الذي ينعكس لنا تفكير القدماء في نشأة اللغة أصلا ، حيث كانوا يعتقدون أن ذلك التكوين الغريب المذهل (اللغة) لا يمكن أن يكون نتيجة صنع الإنسان ، فمن المؤكد أن الإنسان آنذاك لم يكن جديراً - في نظرهم - بأن يخلق عليه هذا الشرف ، وذلك لنقص فكريتهم عن كفاح الإنسان الذي عبر القرون ، مثاتها ، بل آلافها ، إذ كان التاريخ من بدايته عندهم لا يتعدى بضعة آلاف من السنين ، على حين تؤكد بحوث علم الإنسان ، وبحوث الجيولوجيا أن الحياة الإنسانية على ظهر الأرض لا يقل عمرها عن مليونين ونصف مليون من السنين .

هذا القول بأن (اللغة) وحي إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء - هو أول نظرية حاولت تفسير المشكلة ، وهي نظرية قديمة يرجع القول بها إلى الفيلسوف اليوناني : هيراقليط (توفي عام ٤٨٠ ق . م) ، وقال بها أيضا العالم المسلم الحسين بن فارس في كتابته (الصحاحي) وهو .

(١) « مختارات فصول الحافظ » مخطوطة مصورة في خزانة الأمير موسيو كيريم النمساوي
كُتبت عام ١٨٧٧ ، دار الكتب رقم ٢٤٠٦٩ .

آئمة اللغة في القرن الرابع الهجري ، كما قال بها في المصور الحديثة الأب فرانسوا لامى (المتوفى عام ١٧١١م) في كتابه : (فن الكلام)^(١) .

النظرية الثانية :

وهي التي حاولت تفسير نشأة اللغة : بأنها مواضعة واتفاق بين اللفاظين بها ، بحيث كان ارتجال الألفاظ أساساً في بناء اللغة . وقد صور ابن جنى أيضاً رأى أصحاب هذا الاتجاه في قوله : « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا الكل واحد منها سمة ولفظاً إذا ذكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره . . . فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه وقالوا : إنسان .. إنسان .. فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من الخلق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد .. عين .. رأس .. قدم .. . أو نحو ذلك ، فتمت سمعت اللفظة من هذا عرف معناها .. ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : الذى اسمه (إنسان) فليجعل مكانه : مرد ، والذى اسمه (رأس) فليجعل مكانه : سر ، وعلى هذا بقية الكلام . . . وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصنائع لآلات صنائعهم من الأسماء ، كالنجار والصائغ ، ولكن لا بد لأولها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدة والإيماء^(٢)

مثل هذا التخيل لا يمكن أن ينهض تفسيراً لتلك الظاهرة الإنسانية العامة ، شديدة التعقيد ، على حين يحمل هذا الخيال في طياته عناصر البساطة والسذاجة .

(١) نشأة اللغة عند الإنسان والطفل — للدكتور على عبد الواحد وافي — ٢٥ الطبعة الثانية .

(٢) الخصائص ١/٤٤ — ٤٥ وكلمتا (مرد وسر) هما في الفارسية بمعنى (إنسان ورأس) .

النظرية الثالثة :

وهي تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني . وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك ، حسي أو معنوي ، بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعي عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة ، مثل : (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء) كلما قامت به حالة انفعالية كالغضب ، والخوف ، والحزن ، والسرور ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ، ووظائفها ، وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات ، وتشابهت طرق التعبير عن الجماعات الإنسانية الأولى ، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة ، فأخذت فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً^(١) .

ويعترض بعض العلماء على هذه النظرية بأن هذه الأصوات لجائية منفصلة عن الكلام أو التكلم الذي يصدر عن المرء بصورة إرادية ، فبينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعميه القول ، أو حين يأبى الكلام . هذا إلى أن كثيراً من تلك الأصوات (الغريزية) يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسمعها في كلام البشر مثل أصوات اللين المهموسة ، والشهقات التي تنشأ مع دخول الهواء إلى الرئتين . ويشار إلى هذه النظرية بالتعبير : « pooh — pooh »^(٢) .

والنظرية الرابعة :

المتواردة على المشكلة هي الفائلة بأن النشأة الأولى للغة لا تعدو أن تكون تقليداً للأصوات الطبيعية التي سمعها الإنسان الأول ،

(١) نشأة اللغة ٢٨ — ٢٩ .

(٢) دلالة الألفاظ — للدكتور إبراهيم أنيس — ص ٢٣ .

وأتخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات ، فنباح الكلب مثلاً اتخذ رمزا يعبر
أو يدل على نفس الحيوان ، ويرمز إلى هذه النظرية بالتعبير (Bow-Wew) .
وقد سخر بعض النقاد من هذه النظرية حيث وصفوها بأنها تقف بالفكر
الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات ، وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة
النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغرزية ، غير أن وراء هذه الأصوات —
كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس — سوراً حصيناً عنده فى الحقيقة تبدأ لغة
الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة .

وأنت حتى الآن ، إذا أردت التعبير عن أن المدرس صفع التلميذ (قلما)
تقول : (طك أو طق) محاكياً بذلك صوت الكف وهو يصطدم بصفحة
الوجه ، وقد تسمى المرة : (نَوْ نَوْ) ، والكلب (هَوْ هَوْ) .

هذا النوع من الكلمات يطلقون عليه فى الدراسات اللغوية Onomatopoeia
وهى الكلمات التى يلاحظ فيها وثيقة الصلة بين الأصوات ومدلولها .
ومن الممكن اعتبار هذا الجانب من الكلمات بداية معقولة لنشأة اللغة ،
لولا أن عدده قليل فى اللغات المختلفة ، بحيث لا يكاد ينهض ب تفسير هذه
الظاهرة المعقدة .

وهناك نظرية ترى أن اللغة نشأت فى صورة رد فعل من الإنسان تجاه
الأحداث الطبيعية المحيطة به ، وأخرى ترى أن اللغة نشأت بصورة جماعية
... إلخ^(١) .

نظرية جسر سن :

أما أحدث الآراء فى تصور نشأة اللغة فهو ماذهب إليه فريق من
اللغويين المحدثين ، وعلى رأسهم (جسر سن) حين أسسوا نظريتهم على
أسس ثلاثة :

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال .

٢ — دراسة اللغة في الأمم البدائية .

٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوى .

فأما الأساس الأول فقد اهتم به العلماء ، وتابعوا نمو الطفل منذ يصبح جنيناً في بطن أمه ، ووجدوا أن المراحل التى يمر بها فى هذه الفترة هى ذاتها المراحل التى مر بها الإنسان قبل أن تكتمل إنسانيته ، فقاوسا مراحل نمو لغة الطفل على مراحل نمو جسده ، وكان فى قياسهم هذا بعض الغلو ، لأن الظروف التى يعيشها الطفل الآن لا يمكن أن تقاس بما عاناه الإنسان من ظروف فى مراحل الأولى^(١) .

إن الطفل فى تعلمه اللغة لا يتعدى حماية : التقليد الأصوات التى تصدر عن أبويه ، فهو يبدأ أولاً بتقليد الأصوات تقليد عارياً عن الدلالة ، وبذلك يكتسب مراناً على بعض المقاطع التى يجد فى ترديدها لذة وسعادة ، وهى فى الوقت نفسه سهلة على جهازه النطقى . وهو فى مزاولته هذه العملية يكتسب عادة جديدة هى الربط بين الأصوات التى ينطقها ، وبعض للدولات التى يتاح له إدراكها .

ولعل الطفل فى هذه المرحلة قد تميز تماماً عن الإنسان الأول ، الذى لم يجد أمامه نمطاً يقلده أو نموذجاً يحذيه .

ومع ذلك فإن الطفل — كما يقول الدكتور أنيس — يعتبر معيناً فى

(١) السابق ٢٨ وما بعدها .

دراسة النشأة اللغوية ، إذا اقتصرَت دراستنا على السنة الأولى من عمره ، حين ينادي وينطق بأصوات مبهمّة لا تهدف إلا إلى اللذة والمتعة .

وكلنا يشهد هذه المرحلة في أطفال المنزل ، وهم يلعبون في المهد فيستعملون جهاز نطقهم في إنتاج بعض المقاطع الغريبة ، ويبدأ نطقهم منذ الساعات الأولى لولادتهم ، بأصوات يصعب تصويرها . وإن كانت قريبة من صوتي النون والغين ، ولعل هذا هو الذي جعل العربية تسمى هذه المرحلة (المنغاة) ، وليس من قبيل المصادفة أن تأتي (نفا) و (لفا) بمعنى الكلام ، فالنغوة : الكلمة ، والنغية : ما يجبك من صوت أو كلام ، وإنا لنميل إلى اعتبار هذه المادة أصلاً تاريخياً لمادة (لفا) وكن (لغة) أصلها (نغة) في هذا التقدير .

ثم يتطور نمو الطفل اللغوي إلى النطق بأصوات متوالية متشابهة ، وهي غالباً صوت (الباء) : با با با با . . . وبعد قليل ينطق : ما ما ما ما . . . هكذا يحدث في جميع أطفال العالم ، وهو الذي جعل لهذين الصوتين دلالة لغوية مشتركة تقريباً بين جميع اللغات ، حيث يوجد صوت الباء في الكلمة التي تعني (الأب) ، وصوت الميم في الكلمة التي تعني (الأم) .

وقد تفرغت بحوث كثيرة لهذا النوع من الدراسة ، محاولة الكشف عن طبيعته المراحل الأولى في نشأة اللغة الإنسانية ، ولكنها لم تباه حتى الآن ما هدفت إليه .

وقد اتجه اللغوي جسر سن إلى تقسيم النمو اللغوي لدى الطفل إلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة الصياح . ٢ - مرحلة البأأة .

٣ - مرحلة الكلام التي تنقسم إلى فترتين :

(١) فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل .

(ب) فترة اللغة المشتركة ، أو لغة الجماعة ، وفي هذه الفترة يكون خضوع الطفل للمجتمع ، وتأثره به آخذاً في الازدياد شيئاً فشيئاً^(٢) .

والأساس الثاني : هو دراسة لغات الأمم البدائية ، ويرى الباحثون في هذا الجانب أن لغات هذه الأمم تمثل مرحلة قديمة في نمو اللغات وتطورها ، وهى لهذا تلقى ضوءاً على ما كانت عليه لغة الإنسان في العصور السحيقة . ومقارنتها بلغات الأمم المتمدينة ترينا الطريق التى سلكتها اللغة فى تطورها .

غير أن مما لاشك فيه أن آلافاً من السنين قد مرت على الإنسان قبل أن يبلغ هذا المستوى البدائى من اللغة^(٣) أى : أننا فى هذه المرحلة لم نبلغ ما كنا نأمله من إدراك صورة لبداية النشاط اللغوى لدى الإنسان الأول .

وربما كان الأساس الثالث هو أفضل هذه الأسس جميعاً . وهو الدراسة التاريخية للتطور اللغوى ، وقد وجه المحدثون كل جهودهم لهذه الدراسة التاريخية ، ولكنهم بدأوها بطريقة عكسية ، أى : أنهم بدأوا البحث فى لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، مستخدمين معلوماتهم عن حال اللغات فى العصور الماضية ، من النصوص اللغوية ، والمستندات التاريخية ، وهم فى هذا البحث يعتقدون المقارنات ليستنبطوا قوانين أو قواعد للتطور اللغوى ، فمثلاً يقارنون حال الإنجليزية الحديثة بحالها فى عصر شكسبير ، ثم فى عصر تشوسر ، ثم بالألمانية القديمة ،

(١) اللغة والمجتمع للدكتور محمود السمران - ص ٤١ - الطبعة الثانية .

(٢) دلالة الألفاظ السابق .

ويقارنون اللهجات الهندية الحديثة بالنصوص التي رويت عن اللغة السنسكريتية ، ويقارنون اللهجات العربية الحديثة باللهجات القديمة ، وهكذا تستمر مقارناتهم خلال العصور التاريخية التي رويت عنها نصوص لغوية . فإذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة ، للتطور اللغوي أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ما قبل التاريخ^(١) .

ومن العلماء الذين برزوا في هذا الميدان (جبرسن) في كتابه (اللغة وطبيعتها) Language, its nature و (ميه) الذي قدم لنا كتابه القيم : المنهج المقارن في علم اللغة التاريخي Methode Comparatif en Linguistique historique .

ومن الواضح أن محاولات العلماء لم تبلغ هدفها حتى الآن ، حتى لنكاد نقول : إن البحث في هذه المشكلة هو ضرب من ضروب المحاولات الميتافيزيقية التي لن يصل الإنسان فيها إلى شيء حقيقي ، وإن كان من الممكن أن نتخيل - كما فعل أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس - صورة خيالية لنشأة اللغة .

وقد أيدع لنا الدكتور أنيس هذه الصورة الخيالية في كتابه القيم عن (دلالة الألفاظ) فتصور الكلمات الإنسانية الناشئة : كثيرة المبني ، قليلة المعنى ، فالجتمع جماعة من الشباب يرحون ، ويلعبون ، ويستمتعون بالنطق دون هدف معين سوى المتعة واللعب بالسنتهم ، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم ، أى : أن اللفظة نشأت في صورة لعب ممتع ، لا يهدف إلى إيصال معنى إلى السامع ، بل كانت أشبه بمنغاغة الطفل وأصواته المبهمة .

ومن الغباء أن نناق مع بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الهدف الأصلي من الكلام كان التمام وإيصال المعاني إلى السامع ، فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار عناية هؤلاء الفلاسفة ، ولكن عنايته كانت مقصورة على الفرائز والعاطفة ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليستلقت انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كما طير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغنى غناء متواصلاً ، لعله بهذا ينال الخطوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغنى في أثناء صيده ، وفي حربه ، وفي كل ما يقوم به ، غناء لا كغنائنا ، يهدف إلى الطرب . أو يتضمن أصولاً وقواعد ، وإنما هو تصويت منسجم ، تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمقعة ، وأصبح ذا هدف فيما يمد ، واستغل في التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير أو شر .

ومثل التطور الكلامي كمثل التطور في الكتابة ، حين بدأت تصويرية ، قد يرمز فيها المرء بالصورة الواحدة إلى عبارة ذات أحداث متعددة ، ثم صارت أخيراً إلى الكتابة الهجائية ، التي يرمز فيها للصوت الواحد بحرف واحد ، وهكذا الكلام ، بدأ في صورة كتلية ، ثم تحولت الكتلة إلى عناصره ، وهي التي نسميها الآن بالكلمات .

أما كيف انتقلت الأصوات الخالية من الدلالة إلى ألفاظ ذات دلالات ومعان فنستطيع أن ندركه بسهولة ، حين نتذكر عمل الطفل ، وربطه بين ما يسمع وبين ما يشاهد من أحداث ، مما يؤدي في آخر الأمر إلى فهمه لدلالات الألفاظ .

فإذا تصورنا زعمياً امتاز بالقوة الجسمانية والجرأة - ينطق أمام ذويه بأصوات لا يهدف من ورائها إلى هدف معين ، وتصادف أن حدث حينئذ انتصار على وحش مفترس - ربط السامعون بين هذا الحدث وبين أصوات الزعيم ، وقد يرددون ما يسمعون ، ويكررون تردده كلما تكرّر هذا الحدث ، حتى تصبح تلك الألفاظ بمثابة علمٍ عليه ، ولا يلبث العلم أن يتطور إلى كلمة عامة .

ولدينا في العصور الحديثة كثير من الأمثلة التي تبرهن على إمكان تطور العلم إلى لفظ عام ذي معنى كلى . فمن (الإله) نشأ (التآله) ، ومن (الشيطان) جاء (التشيطان) . ومن (إبليس) نشأت (الأبلسة) ، وأصبح للأعلام : حاتم ، ونيرون ، دلالات كلية تستعمل في لغات كثيرة .

فإذا فسرت الأسماء في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى الأعلام — سائر هذا التفسير أحدث ما ينادى به اللغويون في عصرنا الحاضر .

ونحب هنا تعليقاً على العبارة الأخيرة أن نقرر أن وضع (الأسماء) اللغوية هو أول الوسائل لتحقيق وجود المسميات ، فقبل تسمية الأشياء يكون في نطاق المجهول ، فإذا ما عرفنا حقيقة ما درنا بإطلاق اسم عليه ، ليمتيز به من دون المسميات الأخرى جميعاً . فكأن انعدام العلاقة اللغوية بين الأشياء والإنسان يعنى أن هذه الأشياء بالنسبة إليه عدم في عدم ، أى : أن العلاقة اللغوية هي صيغة الوجود بالنسبة إلى كل موجود في نظر الإنسان .

ومع ذلك فإن ما قاله الدكتور أنيس لا يبعدو أن يكون صورة متخيلة ، لاتقوم على براهين قاطعة من التاريخ أو الحفريات أو غيرها من وسائل

المعرفة الإنسانية . وما أشبه هذا الذى يتصوره الدكتور أنيس بما قاله جوزيف فندريس من قبل فى مثل هذا المرض ، فقد قرر أن اللغة كانت عند السلف البعيد الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير - انفعالية محضة ، ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة للمشى أو العمل اليدوى ، أو صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح ، وتكشف عن خوف أو رغبة فى الغذاء . بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت ، بعد أن زودت بقيمة رمزية ، كأنها قابلة لأن يكررها آخرون ، ولعل الإنسان قد وجد فى تناول يده هذا المسلك المريح ، فاستعمله للاتصال ببني جنسه أو لإثارتهم إلى عمل ما ، أو لمنعهم منه . ولا بد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت فى الواقع وسيلة للفعل ، وواحدة من أنجع الوسائل التى مكن منها الإنسان .

وما إن استيقظ فى ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب . وكان تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطأ مع تقدم المخ ، وكان تثبيت اللغة فى داخل الحشود الإنسانية الأولى يسير على نفس القوانين التى تحكم كل مجتمع ، وبوجه خاص كان أعضاء كل جماعة يلتزمون فى احتفالاتهم الجماعية نفس المظاهرات الصوتية أو الغنائية .

وهكذا كانت عناصر العياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقيها كل فرد فى نفسه لاستعماله الشخصى ، ثم قليلا قليلا ، وبفضل الاتساع المتزايد فى التبادل الاجتماعى تكوّن أخيرا هذا الجهاز المعقد الذى لا يجارى فى ثرائه ، ليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار^(١) .

(١) اللغة - ج فندريس - ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى ، والدكتور محمد القصاص -

والفرق بين رأى الدكتور أنيس ورأى فندريس ، هو أن الأول قد تصور العملية فى نطاق فردى ، وتجريدى ، على حين ربط الثانى عناصرها ربطا دقيقا ، حين تصور أن الذى تحكم فى اللغة إنما هو : تطور مخ الإنسان ، وتطور الجهاز اللغوى ، وتطور الحياة الاجتماعية . وهو فرض أقرب إلى الصواب والتقبل ، غير أنه كسابقه لا يبعدو أن يكون تصورا شخصيا ، لا يقوم على دعمه وإثباته سوى الشعور الداخلى لدى البرء بأنه معقول ، دون أن تؤكد ذلك دلائل خارجية ، من تاريخ الإنسان وكشفه القديمة .

ولسوف تظل بحوث العلم فى محاولاتها ، من أجل الكشف عن سر ذلك الاختراع العجيب فى حياة الإنسان ، الاختراع الذى استطاع به أن يسطر على أزمة الحياة ، ومقاليد الكون ، وأن يؤسس تلك الحضارات الشاهقة المتقابلة ، التى تكاد تتهترق أستار المجهول فى بناء الكون العظيم ...

* * *

إن هناك لغويين كثيرين يرون أنه ليس من المفيد البحث فى نشأة اللغة ، باعتبارها حدثا من أحداث ما قبل التاريخ ، وإذا كان الإنسان لم يجمع فى يده حتى الآن أطراف التاريخ ، فأولى به أن يفرغ جهده فيما ينفعه ، ويمجد له من الدلائل ما يفسره ، فأما محاولة الضرب فى المجهول فلن تصل إلى شيء سوى التخمين ، وهو ما ينبغى أن تتنزه عنه البحوث اللغوية التى تمسبت بالموضوعية ، وتوجه إلى وصف الظواهر الواقعية فى أغلب الأحيان^(١) .

ولقد يرى أصحاب هذه الفطرة أن قضية اللغة ونشأتها فيما قبل التاريخ ،

(١) انظر فى هذا : دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح - ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٦ - فى علم اللغة العام)

هى قضية تهم علم الإنسان (الأنتروبولوجيا) ، أو علم الاجتماع ، أو
الجيولوجيا ، أكثر مما تهم اللغويين .

ومع ذلك نجد من المفيد لبيان أهمية اللغة ، وقدم مشكلاتها ، أن
يساءل الاغوى عن نشأتها ، مما تكن تحسيرة على التصور ، فهذا هو المدخل
الطبيعى لدراسة الظاهرة المجهولة الأصل ، ولإثارة خيال الدارسين حولها ،
وهو أمر لا يخلو من فائدة ، كما أنه فى نظرنا ضرورة منهجية
لا يبنى تجاهلها .

اللغة كسب ثقافى

يمكثنا أن نقرر - بعد الذى ذكرنا عن نشأة اللغة ، وتخييلات العلماء واللغويين ، وافتراضاتهم التى لم تصل إلى قول قاطع بكشف عن حقيقة هذه النشأة - أن اللغة ليست إلها ما أو وحيا ، وهى كذلك ليست غريزة أو وراثة ، وإنما هى كسب ثقافى يمتصه الفرد من البيئة التى نشأ فيها .

ومن المؤكد أننا لو أخذنا طفلا حديث الولادة بعيداً عن بيئته ، وأودعناه بيئة أخرى ذات لغة مخالفة للغة أبويه - لشب الطفل يتحدث بلغة البيئة الجديدة دون أن يظهر على لسانه أو فى نطقه ما يدل على أصله اللغوى .

فليست اللغة رابطة جنسية أو نوعية ، وإنما هى أداة انتماء إنسانية يجعلها المرء ليتبادل مع الآخرين ما يشاء من علامات مادية أو روحية .

ويتصل تعلم اللغة بما يتردد على ألسنة اللغويين حين يتحدثون عن (السليقة اللغوية) ، ويعنون بها أن يبلغ المرء فى إتقان اللغة حداً لا يحس معه بتقاليدها ، أو قواعدها ، حين يتحدث بها . فنحن نتحدث باللغة المامية المصرية دون أن نحس بخصائصها أو تقاليدها ، حتى إذا أردنا أن نتحدث لغة أخرى تفتوت الحال ، وبدأنا نشعر بما ينبغى أن يكون عليه حديثنا لىبلغ مستوى الصواب اللغوى ، سواء فى نطق الأصوات ، أو فى اختيار المفردات ، أو فى تركيب الجمل ، أو فى استعمال الأدوات . أو فى تحقيق مواقع الضبط على بعض المقاطع دون بعض ، أو فى إحداث تنعيم معين بختلاف باختلاف المواقف الكلامية .

وهذا هو الفرق بين لغة السليقة ، التى تتحقق فيها كل هذه الشروط

دون وعى إلا بالمعنى المناسب للموقف ، وبين اللغة المتعلمة كوسيلة ثقافية ،
لابد من استحضار عناصر أدائها في الذهن عند استعمالها .

ولقد يبلغ الفرد في إجادته للغة معينة حداً يستطيع به أن يقلد أصحابها
تقليداً تاماً ، ثم يصبح هذا التقليد ، من بعد ، طبعاً ينتفى معه الشعور بخصائصها ،
وهنا يمكن أن يقال : إنه يتحدث تلك اللغة بالسليقة ، وهو مانع فيه حين
نصف رجلاً بأنه يتحدث الانجليزية أو الفرنسية كأحد أبنائها .

ومعنى هذا أيضاً أن الفرد قد تتعدد لديه السلائق اللغوية ، حين يجيد
لغة أخرى غير لغة بيئته ، وهو مستوى لا يتاح إلا بالمران والدراسة الطويلة ،
ومعايشة أصحاب اللغة في بلادهم ، ومعايشتهم ، كما أنه يستلزم أن تكون لدى
المرء حاسة لغوية دقيقة ، تلتقط الفروق الثقافية ، وتسجلها ، وتتمرن عليها .

وكلنا يدرك مدى الصعوبة التي تواجه الأجنبي حين يفد إلى بلادنا ،
فيحاول أن يتعلم اللغة أو اللهجة المصرية ، وكيف أننا مهما بلغ من إتقان في
تقليد أصواتنا ، وطريقة نطقنا - نكشف بسهولة أنه غريب عن لهجتنا ، سواء
أكان ذلك بسبب نطقه لبعض الأصوات ، كالحاء ، حين يجعلها خاء ، أو
هاء ، في كلمة (حبيبي : خبيبي ، هبيبي) ، وكالمين التي يجعلها همزة ،
وكالأصوات المنخمة التي تختفي في لسانه ، ليحل محلها نظائرها المرفقة ، أم
كان بسبب تغييره لمواقع الذب على غير المؤلف في لساننا ولهجتنا .

ولقد يحاول بعض الأبناء والبنات في أوساط معينة تقليد الأجانب في
طريقة نطقهم ، فيبدون نشازاً في أعيننا ، شواذ في خروجهم على سليقتهم
اللغوية ، ومثل هذا السلوك ينبى أن يقاوم بكل وسيلة اجتماعية وتربوية .
ولسوف نعود إلى تحليل وظيفة اللغة كسليقة عند الحديث عن علاقتها بالفكر .

كيف يتعلم الطفل اللغة ؟

ومن المناسب أن نعرض بعض الملاحظات حول تقسيم جسر سن المراحل نمو لغة الطفل : فالمرحلة الأولى ، وهي مرحلة الصياح ، تعد في الواقع البداية الحقيقية للغة بالنسبة إلى الطفل الوليد ، وليس الصياح في مستهل حياته صياحا بالمعنى المفهوم ، وإنما هو أصوات تصدر عن الوليد نتيجة ضغط الهواء الداخل إلى الرئتين لأول مرة ، في محاولة لإيجاد توازن بين درجتى الضغط داخل الصدر وخارجه ، ويحتك الهواء أثناء دخوله بجدار الحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، وحينئذ تبدأ الحنجرة عملها مع خروج الهواء فتكون الصرخة الأولى ، التي نفserها نحن بأن الطفل يبكي ، وهو في الحقيقة يمارس أول ألوان نشاطه الحيوى بشهقات وزفرات تدل على حياته .

ولو أن الطفل نزل صامتا لفعلنا كل ممكن ، بل كل مستحيل ، في سبيل استخراج هذه الصرخات منه عقيب ولادته . بل إن الأطباء ليوصون الأم دائماً ألا تبالي في رعاية الطفل بمحاولة إسكاته كلما صرخ ، لأن لهذا الصراخ - فضلاً عن كونه تعبيراً غريزيا يلجأ إليه الطفل كلما شعر بالأم ، أو أحس بحاجة . - فائدة هي تقوية الرئتين بتشغيلهما على نحو نشيط ، وتشغيل الحنجرة بتنشيط الأوتار الصوتية ، ومن ثم تنشيط المراكز العصبية الموجودة في هذا الجزء الحساس الدقيق ، وذلك يفيد الوليد فائدة كبيرة ، ولذا يفضل أن يكون اهتمام الأم في هذه المرحلة بتقصي أسباب الصراخ ، ثم محاولة التخفيف من حدتها ما أمكن ، دون أن يكون إسكات الوليد هدفاً أساسياً في كل حال .

والطفل في هذه المرحلة من الصياح لا ينطق أصواتاً مميزة ، وإنما يقتصر على ترديد ما يشبه الحركة المعروفة لدينا بالفقعة ، مع شيء من الأنفية أحياناً ،

وقليل من الاحتكاك بأقصى الفم أحياناً أخرى حتى تختلط بما يشبه الغين ، ومن هنا سميت (مرحلة المناغاة) . فـكلمة (المناغاة) هى فى الحقيقة نسيج صوتى فيما نرى ، مكون من الأصوات الثلاثة التى ترد فى صياح الوليد ، وهى التى تتمثل فى اختلاط الفتحة لديه بشيء من الأنفية ، يقر بها من صوت النون ، وبقليل من الاحتكاك يذنبها من الغين ، وليس فى الفعل (ناغى) سوى هذه الأصوات الثلاثة ، محملة بدلالاتها ، وإمكاناتها الاشتقاقية ، ولعله فى تقديرنا أصل الفعل (لاغى بلاغى) ، والمعنى فى كليهما : أصدر أصواتاً ، للمناغاة أو للسلاغة ، واللام والنون يتبادلان المواقع فى العربية .

ومع تقدم سن الطفل يتقدم نموه اللغوى إلى المرحلة التالية ، وهى المرحلة التى سماها جـسـبرسن (مرحلة البأبة) . وإنما أطلق عليها هذه التسمية لسبب بدهى وبسيط ، هو أنه قد لوحظ أن أول صوت يلعب به الطفل فى بدء نضجه هو الباء . كان ذلك بالنسبة إلى جميع الأطفال بلا استثناء . ولقد يحدث أن يأتى الطفل بأصوات أخرى مع الباء ، مثل التاء أو الميم أو الحاء أو الخاء ، أو الكاف . ولكن المهم أنه ينطق بالباء أولاً ، فإذا لاحظ من حوله أنه أتى بهذا الصوت المحبب بادرُوا إلى تشجيعه ، وأخذوا يرددون له هذا الصوت ترديداً مستمراً ^(١) .

ومن فضل الله على الإنسان أن أسلمه فى هذه الظروف إلى معلم فذ ، ذى ثروة مستعجة ، هى الشرط الأول فى نمو الطفل اللغوى والعقلى بوجه عام ، وذلك المعلم هو : الأم . ولولا إصرارها على ترديد الأصوات التى ينطقها الطفل فى هذه المرحلة ، ومحاولة إقحامها فى كل موقف ، والتفنى بها فى كل لحظة ، لما أحرز الطفل تقدمه اللغوى بسهولة .

(١) عالـج هذا الموضوع على نحو متخصص الدكتور مصطفى فهمى فى كتابه القيم (أمراض الكلام) ص ٢٢ وما بعدها .

والمهم أنها تتلقف هذه المقاطع الصغيرة من فم الطفل ، فتعاول أن تحلحله عليها بعض الدلالات البسيطة . وتحاول أيضاً أن تنبئها في ملاحظة الطفل ، كلما رددتها ، وتلعب بها ، بل تحاول أيضاً أن تنطق له بعض المقاطع الأخرى التي ربما تكون قد تأخرت لديه ، وذلك يعنى أن الطفل قد بدأ يستخدم جانباً من إمكانات جهازه الصوتى ، على أن للطفل فى هذه المرحلة التى تبدأ غالباً من الشهر السادس بعض الأصوات الانفعالية ، التى يعبر بها عن رضاه ، أو ألمه ، أو حاجته ، وهو يربط بين الصوت وما يلاحظ من اهتمام من حوله بتحقيق رغباته الفورية ، فيظل يكرر هذه الأصوات فى نفس المناسبة ، وكلما أحس بضرورة نطقها لتحقيق رغبة ، أو إشباع حاجة .

واقدر يحدث أن يصدر الطفل فى هذه المرحلة بعض الأصوات التى تعبر عن سعادته ، حين يسمع أمه تغنى له مثلاً : (يا حبيبى نسا نام ، وادبع لك جوزين حمام) وتظل تنغم له هذه الجملة اللطيفة ، مع شئ من الإيقاع الرتيب ، فإذا به يصدر بعض الأصوات الطويلة التى يجسد بها سعادته بفناء أمه ، كأنما يشاركها أنشودتها ، ثم يفرق فى سبات هادىء لذيذ .

من المقاطع التى تتكون لدى الطفل فى هذه المرحلة تتخذ لغته الصغيرة فى المرحلة التالية (مرحلة الكلام) أدواتها الصوتية المعبرة . فهو يجهد حينئذ نطق مقاطع معينة ، وهو يلمص بهذه المقاطع شحنات من المعانى ، التى لا يظن الشخص العادى أنها لازمة لها ، ومع ذلك يفهمها أهل البيت .

فالمقطعان (ماما) يعنيان الأم ، فإذا ما اختصر الحركة الطويلة (الألف) وشدد الميم : (مِّمّا) فإن ذلك يعنى أنه يريد طعاماً . وكذلك مقطعاً (نينا) يعنيان الجدة ، فإذا ما قصر الحركة ، وشدد الدون : (ننا) فإنه يعنى النوم ، وإذا ما غير الحركة فيهما من الكسرة إلى الضمة الطويلة (نونو) كان ذلك فى نفسه صفة

الصفر لكل الأشياء ، وبخاصة عند الأكل حيث توجهه الأم (كل نونو) ، أو عند رؤية طفل أصغر منه (نونو) .

وفي لغة الطفل الصغير قد يعنى تتابع مقطعين من هذه المقاطع ما نعبر نحن عنه في لغتنا الكبيرة في جمل كثيرة ، فمثلاً إذا قال : « ماما .. ماما » كان ذلك معناه : أنه ينادى أمه لتحضر له الطعام . وإذا قال : « ماما ننا » فربما كان يريد أن يقول : (ماما ... احملىنى بين ذراعىك ، وضعينى فى السرير ، وربى على جسدى حتى أنام ، ولا تتركينى وحدى وإلا بكيت ولم أنم) . وهذه الدلالات الكثيرة المختزنة فى هاتين الكلمتين إنما يحددها ماتعودته الأم من سلوك الطفل ، وهو فى الواقع ماتعوده الطفل من سلوك أمه معه فى مثل هذه الحال ، لأن بعض الأطفال قد لا يعنى من هذه العبارة سوى أن تحتضنه أمه بين ذراعيها فيستسلم للنوم اللذيذ .

هذه المرحلة التى أطلق عليها جيسبرسن (مرحلة اللغة الصغيرة) هى أهم المراحل فى نمو الطفل اللغوى ، لأنه يتهياً آنذاك لتقليد من حوله فى كلماتهم ، وإشاراتهم ، وتصرفاتهم ، ولقد يأتى من حركات هذا التقليد بما يضحك له الكبار ويستظرفونه منه ، ومع ذلك قد يكون هذا الاستظراف من علامات الخطر على نمو الطفل اللغوى . وذلك فى حالة ما إذا دأب الكبار على تأكيد نقص الطفل اللغوى ، فيشجعونه على مواصلة ظرفه ، ويتجه هو بفعل هذا التشجيع إلى تثبيت نواحي نقصه ، فيشب وتشب معه هذه النقائص الصوتية ، أو بعبارة أصح : الأمراض الكلامية ، التى لم تسكن فى مهدئها سوى انحرافات بسيطة ، كبرت مع الزمن ، ومع غفلة الكبار ، أو جهلهم .

والسلوك العامى الواجب فى هذه المرحلة ألا يقلد الكبير الطفل فى

أداء مقاطعه ، بل يحاول أن ينطق أمامه نطقاً سليماً ، غاية السلامة ، لتتأكد في سمعه وفي وعيه النماذج الصحيحة ، ويطمح هو بدوره إلى محاكاتها ، فيتقدم مع كل محاولة المحاكاة خطوة في طريق نموه اللغوي السليم ، وتطوره نحو اللغة المشتركة .

ومن الصعوبات التي يواجهها الطفل في هذه المرحلة أنه ينطق ببعض الأصوات نطقاً خاطئاً ، وهو خطأ ناشئ عن إدراكه الكلي لمجموعات الأصوات المتشابهة ، فهو يتصور الراء والسين والشين والصاد بكيفية واحدة ، فينطقها جميعاً صوتاً أسنانياً (ثاء) ، وهو يخلط بين اللام والراء ، فيوحدهما في صورة اللام ، وهو لا يستطيع أن يؤدي صوتاً منفهما ، بل يحاول أن ينطق المرقق دائماً ، فالضاد دال ، والطاء تاء ، والصاد ثاء (هي في الأصل سين) ، والطاء ذال ، وهكذا .

ومن غير المستساغ إطلاقاً أن يغفل الأبوان عن محاولة تصويب نطق الطفل في هذه المرحلة المبكرة ، لاسيما في المواقف الانفعالية التي تشد الطفل إلى محاكاة الكبار ، ليصبح مثلهم كبيراً ، أو ليرضيه ويظفر بالحلوى أو القرش ، وهكذا ، ولقد يسهل عملية التصويب أن يدرك الأبوان ، ولو بصفة عامة بعض الأفكار عن آلية النطق ، فيسلكان في توجيه طفلهما مسلكاً مفهوماً ، وممكناً ، دون تهويل ، أو تضخيم للمشكلة .

* * *

وعودة إلى حديثنا عن علاقة هذه الدراسة لنمو اللغة عند الطفل بما نحن بصدد من دراسة نشأة اللغة عند الإنسان ، لنقول : إن أهم هذه المراحل فائدة بالنسبة إلى بحثنا هو ما يتصل بالمرحلتين الأوليين ، مرحلة

الصياح ، ومرحلة البأبة ؛ فلاشك أن الإنسان البدائي قد مر بهما في أطوار نموه اللغوى . أما بعد ذلك فإن الطفل يجد لديه قدرة يحاكى بها دائما ، على حين لم يجدها الإنسان في محاولته الأولى للتعبير عن نفسه ، ولم يتبحر له ذلك إلا بعد أجيال وأجيال ، نضج فيها نحه ، واستوى سلطانه على قواه وملكاته ، وتهيأت له الظروف الاجتماعية ، بالمعنى الأعم ، حتى استطاع أن يصوغ انفعالاته في مقاطع أو كلمات ، على ما فهمناه من سياق دراستنا لهذا الموضوع .

أهمية العناية العلاجية بلغة الطفل

لقد يكون ضروريا أن نشير هنا مرة أخرى إلى أهمية العناية بلغة الطفل، لا من حيث تكثير مفرداتها أو تعبيراتها، فذلك أمر سوف يتاح للطفل السوى من بينته الأولى، وبالتدريج، ولكن من حيث طريقته في نطق الكلمات، وأصواتها المختلفة. فلا شك أن من الأصوات ما يسهل على الطفل نطقه عن طريق المحاكاة كما سبق، ومنها ما يصعب عليه محاكاته. نظراً إلى التباسه في ذهنه بمواصفات صوت آخر، أو إلى ضعف جهازه النطقى، أو عدم نضجه.

فالطفل حين ينطق السين ثاء (أو سيناً أسنانية) إنما يستسهل عملية قياس السين على الثاء، ربما لأن جرسهما في أذنه متماثل، وربما لأنه لا يميل إلى محاولة التنويع في حركاته النطقية، وربما أيضاً لعيب من العيوب اللسانية أو الأسنان كقصر اللسان، أو بروز الأسنان الأمامية العليا خارج الشفتين.

وكذلك الطفل الذى ينطق الراء لاما، أو ياء، قد يكون خطؤه راجعاً إلى قصر في لسانه، نتيجة اقتراب الغشاء الموجود تحت اللسان في قاع الفم - من مقدمه، بحيث يبدو اللسان مشدوداً عند محاولة إخراجه من الشفتين، وهذا عيب خلقي، وقد يكون خطؤه ناشئاً عن سوء التقليد والتوجيه.

وقد صادفت عيوباً نطقية لدى بعض الكبار نشأت معهم منذ كانوا أطفالاً، وكانت في الحقيقة عيوباً جوهرية يجعل لها أصحابها، حتى أحدثت فيهم إلى جانب كونها أمراضاً كلامية - عقداً نفسية تدفعهم غالباً إلى الهروب من مواجهة الناس، ولاشئ يضر نفس المريض من هذا النوع قدر السخرية من عيبه النطقى، والتندر بمجزه عن مجازاة الآخرين.

عرفت طالباً كان ينطق الراء نونا بلا سبب واضح، وعرفت آخر ينطق

السين والشين والصاد جانبية، من مخرج اللام.

وعرفت طالبة كانت تنطق القاف عينا ، والحاء حاء ، والراء ياء ،
والغين عينا ، والشين سينا ، أى : أن حروف هجائها لم تكن أكثر من
أربعة وعشرين حرفا .

وقد وجدت أن كلا منهم قد لزمه هذا الانحراف النطقى منذ نعومة
أظافره ، وساعد على تثبيت الانحراف تشجيع الأبوين وسائر الكبار لهم ،
واستظرافهم لنطقهم ، حتى كان من النسلية الممتعة أن يلعب كل منهم بما يثير
ضحك الكبار وسعادتهم ، أو يستدرق رؤسهم لشراء اللعب المختلفة أو الحلوى .
وهكذا يسهم الإهمال والاستهانة فى تضخيم حجم المشكلة التى يمكن
تلافيها فى بدايتها بقليل من العناية والاهتمام .

ولقد ترتب على وجود هذه العيوب النطقية محاولة الطالبة الهروب من
الحديث بصوت مرتفع ، بما فى ذلك القراءة أمام زميلاتها ، وكانت النتيجة
سنوات من الرسوب والإخفاق ، إلى جانب توهم استحالة علاج هذه العيوب
المنهجية ، واستحالة الزواج آخر الأمر ، أو صعوبته .

وحكى لى الطالب المومى إليه أنه كثيراً ما كان يبكى كلما عرض عليه
مدرسه أن يقرأ أمام زملائه أى درس ، أو يسمع أى نص محفوظ ، فقد
كان انعدام الراء فى نطقه ، وحلول النون محلها مدعاة للضحك القاتل حين
ينطق كلمة الشريعة : الشنيعة ، والتحرير : التعنين ، والرغيف :
النفيف .. إلخ ..

ومع ذلك فإن مفتاح علاج هذه النقائص هو فى تحقيق درجة الاقتناع
النفسى بإمكان العلاج ، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة تشخيص منشأ الانحراف ،

سواء أكان خلقيا ، كتهصر اللسان أو كبر حجمه ، أم اعتياديا ، كال تقليد الذى يترتب عليه خمول فى عضلات اللسان فى بعض المواضع .

وعلى كل حال فإن إرادة المريض للشفاء هى الأساس الذى يحقق أعظم النتائج ، ولا سيما إذا كان العلاج يتطابق تدريجيا شاقا للسان على مقاطع معينة ، يراد تعويده على أدائها ، بما يلزم هذا التدريب من رفع الصوت ، وتكرار النطق ، حتى لو كان معيباً .

ولكيلا نستعرد فى هذا الجانب العلاجي نعود إلى ملاحظة لغة الطفل ، وضرورة العناية بها ، فلا يحل بينه وبين الانحراف مهما كان ظريفا ، كما لا ينقل عليه بما يفوق طاقته على الأداء ، ولكن التوسط هو المطلوب ، وبخاصة إذا روى تلقين الطفل بعض النصوص الحلوة ، كآيات من القرآن يرددها أمامه الكبار ، ويردها هو أمامهم ، وكأغنيات جميلة المعنى ، عن الأم ، أو عن الطيور ، أو عن الوطن ، مع تدريبه على نطق المقاطع أو الأصوات التى لا يأتى بها على الصورة المرغوبة ومع استبدال الصوت الصحيح ، أو المقرب منه بالصوت المعيب ، فالذى ينطق الراء لاما ، تنطق أمامه الراء ، أو تقرب إلى الياء ، للتشجيع على التغيير .

ولقد يفيد فى هذه المرحلة أن يسمع الطفل أغنيات ونصوصا من جهاز تسجيل ، خصوصا وأن كثيرا من أطفالنا محرومون الآن من رعاية أمهاتهم لهم ، بسبب الخروج ساعات طويلة للعمل ، وقد كانت الأم (ست البيت) معلما ثرائرا ناجحا ، ونعمة ليها دامت لتقويم ألسنة الجيل الناشئ ، وصوغ شخصيته القومية .

على أن أخطر الجوانب فى هذه المرحلة أن يتولى توجيه الطفل معلم أو معلمة ، على غير المستوى المطلوب من جودة النطق ، ودقة الملاحظة ، من

ذلك النوع الذى يتم سلقه فى معاهد المعلمين والمعلمات ، دون أن يعملوا تجويد النطق ، وهو جانب من المخطوطة بمسكان .

وإذا كان شبابنا قد تعودوا إهمال بعض الأصوات الفصحى فى نطاقهم الدارج فإن ذلك مما يجب تحاشيه فى توجيه أطفالنا إلى النطق السليم ، حتى تسترد اللغة على ألسنة أبنائها كل مقوماتها ، دون تفريط أو إفراط ، وبخاصة إذا لاحظنا زيادة الطلب على الفتيان والفتيات للعمل بوسائل الإعلام المختلفة ، وأخطارها الإذاعة والتلفزيون .

هذه كلمة لا بد منها فى معرض التعريف باللغة على ألسنة الأطفال ، ونرجو أن نفرغ لهذا الجانب علاجا خاصا فى القريب .

اللغة والفكر

لقد سبق أن أشرنا في مناقشة نشأة اللغة إلى أنها كانت في مبدئها ظاهرة انفعالية ، وأن أمرها قد تطور بتطور نضج الإنسان ، وسيطرة عقله على انفعالاته ، وبذلك استطاع أن يحكم هذه الأداة الانفعالية بعقله ، أى : أنه وضعها في خدمة تفكيره ، بعد أن كانت مجرد ترجمان لعواطفه وانفعالاته . ومع تقدم الحضارة الإنسانية أصبحت اللغة هى الأداة الحضارية التى يسيطر بها الإنسان على سائر القوى المختلفة فى الكون ، ويتعامل بها معها . وبذلك أصبح كل شيء ، فى الحياة ذا علاقة باللغة ، وله فيها رمز وتسمية ، بحيث لا يمكن للإنسان أن يمارس علاقاته بالأشياء دون استحضار رموزها اللغوية .

ومن الممكن التعبير عن هذا المعنى بأن الاسم هو الوجود اللغوى الذهنى للمسمى ، على حين يمثل المسمى نفسه جانب الوجود المادى ، فكأن لكل موجود حالتين : حالة الوجود المادى فى الطبيعة ، وحالة الوجود الإنسانى فى اللغة .

وقد استطاع الإنسان بذكائه أن يضع لعلاقاته وتصوراته عن كل شيء وقع عليه بصره أو حسه رمزاً يحدده ، ويصفه ، على الأقل من وجهة نظره ، وذلك ليتمكن أن يتخذ منه موقفاً معيناً عند الاقتضاء ، وبحيث يستطيع أن يستحضره فى ذهنه إذا ما أراد .

من هنا كانت حركة التفكير فى الإنسان ذات ارتباط وثيق باللغة ، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا إذا صاغ عناصر فكره فى قوالب لغوية ، وترجمها إلى رموز لغوية .

ويبدأ هذا التلازم بين الفكر واللغة منذ يمي الإنسان حقيقة وجوده ،
ويجد نفسه قادرا على ترجمة علاقاته بعناصر الحياة إلى كلمات ذات دلالة .

ومن ثم وجدنا كثيرين من المفكرين يرون أن أعظم تطور يتحقق في
حياة الإنسان حين يعبر عن ذاته بالضمير (أنا) ، ويحدث ذلك خلال
السنة الثانية من عمر الطفل . يقول الأستاذ بول شوشار Paul chauchard
في كتابه عن (اللغة والفكر) : عندما يبدأ الطفل في الثانية والنصف من
عمره يعبر عن نفسه بوساطة الضمير (أنا) ، فإنه يصبح حينئذ واعيا تماما ،
إذ يكون قد تخطى نهائيا المستوى النفسى الحيوانى ، وذلك ثمرة جهوده الدائبة
للسيطرة على اللغة ، تلك الوسيلة الثقافية ، فالمستوى الإنسانى للوعى المفكر
مرتبط إذن باللغة ، وإنما كان ذلك لأن الفكر لغة داخلية ، فهو لذلك قابل
للتوصيل ، ولأن الجانب النفسى ، وهو إدراك أحوال الوعى أو الشعور ،
قد بدأ يتكون^(١) .

فها هو ذا شوشار فى دراسته السيكلوجية الممتازة يعتبر أن تعبير الطفل
عن نفسه بالضمير (أنا) إنما يمثل مرحلة حاسمة فى حياته ، تسجل انتقاله نهائيا
من المستوى النفسى الحيوانى إلى المستوى النفسى الإنسانى .

والواقع أننا ندرك من خلال هذا التعبير ما ينطوى عليه من دلالة على
تمام نضج الطفل ، حيث يكون فى هذه المرحلة قد أدرك ذاته ، إدراكا صحيحا
متميزا ، وحيث يكون قد وعى حقيقة علاقاته بالآخرين ، علاقاته بمدلول
الضمير (أنت) ومدلول الضمير (هو) ، وكل ما يقصص بصور التباين فى
الذوات ، وكل ذلك نابع من إدراكه للأنا المتكلمة ، المستكنة فى
ذاته .

() Paul chauchard, Le langage la pensée, p, 67

ولو افترضنا طفلاً ينشأ دون أن يدرك هذه التفرقة وحدودها النفسية والاضوية ، لما تمثلنا غير حيوان يرتع مع نظائره ، يبحث عن إشباع نداء الغريزة ، من طعام وشراب ومأوى ونوم ، وهي حالة يوجد عليها دائماً المتخلفون عقلياً ، إذ تمثل جميع الموجودات حولهم صوراً غائمة ، لا تفسر بغير الحركة ، ولا تتصل بوجودهم إلا بقدر ما تستثير غرائزهم بأصدائها المحببة أو المخيفة ، وهي أصداء موقوتة ، وسريعة التلاشي .

ومن إحساس الطفل بمفهوم الضمير (أنا) ينطلق فكره لينسج كل أشكال العلاقات العاطفية ، والمادية ، والذهنية ، ليشيد منها صرح حياته المتباينة الألوان والمستويات ، وتظل حركات هذا الفكر دائرة في إطار من الكلمات ، التي تيسر له عملية التصور والتخيل ، لأن الفكر ليس سوى لغة داخلية ، تحتاج دائماً إلى أن يتم توصيلها إلى الآخرين ممن لديهم نفس اللغة ، ولن يتم هذا التوصيل إلا بوساطة اللغة الخارجية ، المتمثلة في الرموز الصوتية .

ومن الصعب تصور انفصال حركة الفكر عن كلمات اللغة ، بل إن ذلك من أصعب عمليات التجريد الفلسفي ، ولكن التحليل العلمي مضطر دائماً أن يعبر عن كل جانب من جوانب النشاط الإنساني تعبيراً مستقلاً ، على الرغم من أن الواقع لا يستطيع الفصل بين الفكر واللغة ، أو بين اللغة الداخلية والصورة الخارجية .

فعملية الاتصال الإنساني أشبه بالعملة النقدية ، ذات وجهين هما اللذان يمنحانها قيمتها ، وقوتها الاقتصادية ، وفقدان أحد الوجهين معناه ضياع هذه القيمة .

وكذلك لا يمكن تقويم اللغة الداخلية التي هي الفكر إلا إذا شهدناها في صورة نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة الاصطلاحية ، أعنى : في صورة اللغة ، كما لا يمكن فهم أية مجموعة من الرموز اللغوية دون أن تحتوى على رصيد من نشاط الفكر الإنسانى ، لأنها حينئذ تكون مجرد نثار من الأصوات والصرخات ، عديمة الدلالة ، فاقدة العلاقة بحياة الإنسان ، وهى أشبه بنهيق الحبر ، ونباح الكلاب ، لا يحمل كلاهما سوى ما يمكن خلفه في نفس الحيوان من طاقة انفعالية غريزية .

فإذا انتقلنا إلى تصور تجربة حية في علاقة الفكر باللغة كان لنا أن نذكر موقف أحدنا وهو يتعلم لغة أجنبية ، فيصادفه موقف يتطلب منه أن يعبر بجملة كاملة مثل : (أريد قلمًا) ، فإذا كان المخاطب فرنسيا مثلا فإني أتنبأ لمخاطبته باستحضار المطلوب في ذهنى ، ثم أصبه في قالب عربى ، ثم أجرى عملية ترجمة لمفردات الجملة ، وأركبها على النسق الفرنسى ، ثم أستجمع قواى وأنطق في مواجهة عبارة *Je veux un crayon* ، ومن المحال أن يتم صوغ هذه الجملة مباشرة ، داخل الفكر بكلماتها الفرنسية ، لأن حركة الفكر لا تتم في هذه المرحلة بغير العربية ، فصور الأشياء والأحداث هى صور عربية تماما ، مخزنة في سلية الفرد ، وهى تقفز إلى ذهنه كأدوات ضرورية ، كطاقة كهربائية لازمة لإدارة محرك الفكر ، ثم تتم عملية ترجمة هذه الصور العربية إلى الفرنسية أو الإنجليزية في المرحلة الثانية ، التى يتم توصيلها إلى المخاطب برموز لغوية .

ومن الممكن أن نشهد هذه الظاهرة بصورة عكسية في أولئك المواطنين العرب الذين يقضون سنوات عديدة في بلد كإنجلترا ، ثم يعودون إلى

الوطن ، فإذا ماتحدثوا بالعربية تعثروا في تصوير أفكارهم ، لصعوبة الحصول على قالب عربي لهذه الأفكار ، فتجد الواحد منهم يقول لك عندما يتعلم ، مطلقا لسانه بالإنجليزية .. I am sorry, I want to say that ، إلى غير ذلك من التعبيرات التي يتعرك بها فكره ، قبل أن ينطلق بها لسانه ، وما ذلك إلا لطول الإلف ، وشدة الامتزاج بطريقة التعبير والتفكير بالإنجليزية ، ثم لا يلبث بضعة أشهر حتى يسترد قدرته على التفكير بالعربية ، ويعود سيرته الأولى عربي الفكر واللسان .

ولقد تعد اللغة ، برغم أنها وسيلة الفكر - قيداً على حركته ، وذلك عندما يلح بمض العلاقات الذهنية أو الخارجية التي نجملها ، لأنها لم تتعدد من قبل في صورة رمزية لغوية ، غير أن الفكر سرعان ما يعود إلى مألوفه من الصور المحزنة ، بقرن النظر إلى النظر ، ويمائل الشيء بشبهه ، ثم يواصل نشاطه بوساطة التمثيل اللغوي ، أو الاصطلاح ، أو الافتراض ، أو غير ذلك من الوسائل اللغوية ، وهي جميعا معينات على استمرار فكر الإنسان مطرد الحركة ، وبذلك تستمر أيضا عملية نمو اللغات وتطورها .

ولو أننا رجعنا إلى ما سبق نقله عن دوسوسور ، عن (مكان اللسان في أحداث اللغة) رأينا أن الفكرة تفجر في المخ صورة صوتية مقابلة لها ، وهو ما يفسر بالارتباط بين الظاهرة النفسية ، والحركة العضوية ، وقد عبر ماريوباي عن هذا الارتباط بقوله : « عملية الكلام - إذن - تتكون من جانبين ، عضوي ونفسي ، وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسي أو العقلي الذي سبق الاتفاق عليه في عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها ، ولكن سرعان ما تنقل إلى العملية العضوية عن طريق

إشارات عصبية يرسلها العقل إلى الجهاز النطقى لإنتاج الصوت المطلوب .
وفي الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقى الذى يصدر أصواتا متتابعة مسموعة تنتقل
عن طريق موجات صوتية إلى أذن السامع ، وأذن السامع بدورها توصل
الرمز الصوتى الذى استقبلته إلى العقل الذى يعطى هذه الرموز قيمتها ،
ويترجم الرسالة - على ضوء ما اختزن فيه سابقا من علاقة بين الرمز الصوتى
ومدلوله ، سواء اتفق الفهم تماما مع ما فى ذهن المتكلم أم لا ^(١)

وتنبئنا الإشارة هنا إلى أن هذا التصوير للعلاقة بين العقل والجهاز
النطقى ، وكيفية تلقى أو إصدار الرموز فى ترجمة مضمون الرسالة ، على
ضوء ما اختزن فيه سابقا من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله - هذا التصوير
هو ذاته الفكرة التى يقوم عليها (الكمبيوتر) الذى يحتزن فى ذاكرته كل
العلاقات الممكنة ، ثم هو يختار منها ما يناسب الفكرة التى يتلقاها ، عند
إرادة الترجمة إلى لغة أخرى ، تماما كما يختار العقل الإنسانى من بين العوالم
المحتزنة فيه ما يناسب الفكرة المبلغة إليه عن طريق الأذن .

ولا شك أن العملية على المستوى الآلى تتسم بالتعقيد الشديد ، الذى
ينهض بمعبء العمل لتحقيقه فريق من المتخصصين العاكفين على إنجاز الترجمة
الآلية فى مختلف بنوك المعلومات .

وإيس إنجاز هذه العملية على المستوى الإنسانى بأقل تعقيدا ، ولكن
كثيراً من الأعمال تتم بصورة تلقائية ، لا دخل للحساب ، أو الإعداد فيها .
وهو أمر يكشف عن أن العقل الإنسانى ، وهو صنعة الله ، أعظم بكثير من

(١) أسس علم اللغة / ٤١ .

أى عقل آلى ، هو من صنعة الإنسان ، لأن العقل الآلى يقتصر دائماً على تحقيق العلاقات المحسوبة بين المعطيات المخزنة فيه ، على حين ينفرد العقل الإنسانى بالنشاط الإبداعي لأمر قد لا تكون عناصرها مخزنة فيه ، ثم يحاول إعطاءها رموزها اللغوية ، على غير مثال سبق ، وهو مالا تطبيقه إمكانيات العقل الآلية ، وتبارك الله أحسن الخالقين^(١) .

(١) للمؤلف كتاب مشترك في الإحصاء اللغوي باستخدام الكمبيوتر طبع جامعة الكويت ١٩٧٥ . وله أيضاً مشاركة في وضع نظام لترجمة الآلية للمرة الأولى في العربية ، وفي إطار التعاون مع مركز التنمية الصناعية - بالجامعة العربية .